يا ليـــــل ...!

للأستاذ محمد خير الدين الأسدى

(تتمة ما نشر فى العددين السابقين)

نعود الآن فنرهب الموقف ، وقد بدا لنا توجيه آخر ، ذلك أن الغناء العربى من طابعه الإعادة والترداد ، بأن تعاد الكلمات وأحيانا مقاطع هذه الكلمات ، على نحو ما نسمعه اليوم ، فهل يبعد أن كان ردد مغن مجيد مقطع « لى » من موالى ، فكان من وراء هذا الترداد « لى لى » أو قل : ليـلى مصدرة بأداة النداء القائمة بالأصل ، ثم استحسن هذا التفنن وجرى الناس عليه إلى يومنا .

ولعل ما أغرى المغنين بالتمسك بصورة يا ليلى نزوعهم إلى التفرقة بين الغناء الغرامى والغناء الدينى المفتتح بيا مولاى — كما هو شأن التمجيد فى المآذن — .

عرفنا بعد ما تقدم أن يا ليلى أصلها يا موالى ، فلنسجل هذا المذهب بجازم اليقين ، لما أن البينات تدعمه ، ثم لنسجل ما تبقى من تطورها بشىء من التحفظ ، لما أن تاريخ الغناء ومرور الزمن تأبيا على التمويض والإبهام .

انتقال يا ليل مع الموال :

وكتب لنا ليل أن تفارق الموال إلى غيره من ضروب الغناء متنكرة بمظهر جديد — كما نرى نحن — منها .

يا ليل في الموشحات :

انتقلت يا ليل إلى الوشح بشكل « يالا » و « يالالا » و « يالان » و « يالالالا » و « يا للى » كما فى موشح « أحن شوقا » وتلحين الوشح كما يحدثنا الأستاذ رجائى :

أحن شوقا إلى ديا إلى ديار رأيت فيها جمال سلمى آه يالان جانم
يا لا يا لالا يا لان جانم يالالالا يا للى ...

وقد تظهر بمظهرها الأصلى : يا ليل أو يا ليلى ، كما فى الوشح الحديث : « زالت الأفراح عنا » ، وتلحينه كما يحدثنا الصديق رجائى :

ليلى يا عينى يا ليل زالت زالت يا عينى ...

وقد تكون يا للى ، كما فى موشح « ما احتيالى » وقد تدخل فى صلب الوزن الشعرى بصيغة يا لالى ويا ليا وهلوليا ، كما فى « يا لالى هوانم آه يا لالى » و « يامه يا ليا يا زرد خلخالى » و « هلوليا هلوليا عينى يا لينية » .

وقد تبقى سالمة بإزالة تضعيف الياء ، كما فى لازمة من أغانى رقص السماح « مواليا يا مواليا والعشق غير حاليا » . وقد تحذف الألف كما فى طقطوقة « زوالف يابو الزلف عينى يا مواليا » .

يا ليل فى الغناء الفارسى :

انتقلت يا ليل إلى الغناء الفارسى بشكل « دلاى » ، وكان لها هذا التحريف لتتلاقى مع لفظ ذى دلالة فى الفارسية ، ذلك أن « دلاى » كلتان : « دل » بمعنى القلب و « أى » أداة نداء وهكذا تبوأ يا قلبى — وما أحلى هذا النداء — مكانه فى الغناء الفارسى ، حذو أمها « يا ليلى » فى الغناء العربى ، فتكرر كثيرا ولا تزال دولتها قائمة ، وإن كان معاصرونا يقللون من ترددها . حدثنا بذلك موسى أفندى البهائى ابن أخى عبد البهاء فى حفلة أقامها لنا الأستاذ ثابت عريس قنصل سورية بحيفا .

يا ليل في الغناء الكردى :

معظم الغناء الكردى من نوع الموال ولازمته التى ترد هى « لو لو Lo Lo » وقد تقسم بين جزئى اللازمة « ده » الدالة على التكرار .

وليست لو لو من لو الكردية بمعنى « يا » : أداة النداء ، إنما هى عندنا تحريف « ليلى » على شكل ينسجم مع مدلول آخر فى الكردية .

يردد المغنى الكردى « لو لو » كثيرا وكثيرا ، ولقد عاب أحدهم كرديا بهذا الترديد الكثير الممل ، فأجابه — وكنت أسمع — : جانم ، وانتوليش بيقول: يا ليلى يا ليلى ، فرد الحجر من حيث أتاه .

يا ليل في الغناء التركي :

وانتقلت إلى الغناء التركي ، إلى ضرب من غنائهم السمى « غزل » وهو ما يشبه الموال عند العرب لكنها تحرفت كثيرا ، إذ كان مظهرها « يارى » أو « يارهى » يذكرنا بكلمة « يار » الفارسية بمعنى حبيب[1] مذيلة « بأى » أو « هى » أداة الهتاف وكثيرا ما تلحق بأمان امان .

وإذا لاحظت إمالة الراء في « يارى » وإمالة الهاء في « يارهى » بدا لك أن وزنهما ووزن « يا ليل » المالة واحد .

هذا في نوع الغزل ، أما ما عداه من الغناء التركي فقد استعملوا فيه « واره للى للى » حتى جاء منير نور الدين مغنى أتاتورك فاستعمل هذه الأخيرة في المقامين : الغزل وغير الغزل .

وبمناسبة الغناء التركي ويا ليلى نورد لطيفة يتحدث بها أهل استنبول ، تلك أنهم زعموا أن عربيا صحب شيطانا في سفر له من استنبول إلى بغداد ، واقترح عليه أن يقطعا الطريق بالغناء على أن يترك صاحب الدور في الغناء ظهر صاحبه إلى أن ينتهى ، فيؤول الدور إلى الثاني وهكذا .

ها هو ذا الشيطان على ظهر العربي وها هي ذي أغنيته تردد البراري صداها ، حتى إذا ما انتهى نزل وكان الدور للعربي ، فركب وأرسل الصوت بيا ليل يا ليلى ... قالوا بلغ بغداد ولم ينته من يا ليلى ...

يا ليل في الغناء الأرمني :

تستعمل يار الفارسية في الغناء الغرامي Troubadour المدعو عندهم « أشوغا كان » ونلاحظ التقارب اللفظي بين هذه الكلمة وكلمة « عشق » العربية .

وتستعمل «لو لو OLO » في غير هذا الضرب وتتجلى في أغنية « بسيانا كاجر » أي أبطال جبل سيبان ، وهو قرب مدينة وان ، وهذه الأغنية قديمة العهد ، وشاعرها مجهول .

وقد تستعمل « لى لى » بالإمالة وهذه مستفيضة . وأن « لو لو » و« لى لى » كليهما لا مدلول لها في الأرمنية .

(١) قاموس شمس الدين سامى ط استنبول .

يا ليل في الغناء القوقازي :

قبيلة غمرق في داغستان تستعمل « دلاى » أو « دللاى » في ضرب من غنائها ، يرددها المغنى كثيرا ، وقد ترددها الجوقة دون المغنى ، وهي لا مدلول لها عندها

يا ليل في الغناء الديني ليهود حلب :

يهود حلب دون كل يهود العالم يحتفظون في تقاليدهم بكثير من التراث القديم ، ولقد كتب لنا أن درسنا في مدارسهم اثنين وعشرين عاما ، اطلعنا فيها على الكثير من دينهم ولغتهم وأساطيرهم وما إلى ذلك .

ومما نعرفه ونحن في صدد يا ليلى أنهم ينقلون النغم العربي إلى حفلاتهم الدينية الفرعية بألفاظ عبرانية تشابه جدا الألفاظ العربية كل هذا بتوخ وقصد ، ولطالما سمعنا طلابنا الشادين يغنون « يه الى » بإمالة الهمزة ، فهي على وزن يا ليلى ، وهي قريبة اللفظ منها ، ومعنى يه الى : الله إلهى ، إذ أن « يه » المقطع الأول من يهوه .

يا ليل في الغناء الغربي :

يستعمل الغربيون عامة لدى تجسيد النغم « لى للى ... لم » وظني أن هذه الألفاظ التي أهملتها مماجمهم هي من « ليلى » مقفاة بالميم المؤذنة بالوقفة ، أو بأمد من السكوت يوحى به إطباق الفم بها .

فإذا صح ما قدمته صح معه أن دولة يا ليل العربية تمتد من سواكن فشمال أفريقية فجزيرة العرب ما خلا البادية فالعجم فتركية فأرمينية فالقوقاز فسائر أوروبا ، ومن اصطبغ بمدنيتها من أمريكا وسائر المعمورة .

وعلى هذا الامتداد لا يكاد يدور دولاب الزمن نحواً من الدقيقة ألا يتموج الهواء بيا ليل ليل نهار دون انقطاع ، وهذا مجد ما بعده من مجد .

(تم البحث)

محمد خير الدين الأسدي